مصطفى بركات

شظايا من الحقيقة

انه لا يعرف شيئا عن الموت في صحراء سيناء ولكن خيل اليه انه قال شيئا عن الموت في صحراء سيناء وان صوتا ضعيفا اتاه من بعيد ـ من الاعلى ومن الناحية الشمالية ـ يقول : « انه يهذي » .

وقبل أن يجتمع حوله الناس ، تجمع حوله المطاط والحديد والزجاج ..

لم يذق من قبل طعم المطاط ولا طعم الحديد ولم يعرف شيئا عن طعم الموت ولا عن طعم التراب . ولكن المطاط والحديد والزجاج تجمعوا ليأكلوا من لحمه ، انقضوا على جسده النحيل كالحيوانات المفترسة .. وشربت الارض من دمائه ما استطاعت أن تشرب .

لم يقترب من قبل هذا الاقتراب من الموت ، لم يعش ابدا في جوار هذه الحدود بين الظلام والنور ، بين الصمت والضوضاء ، بين السكون والحركة .

لم يكن يظن أن الزمان يمكنه أن يتباطأ ويمتد بهذه الصفة حتى تصير الثواني شبيهة بالسنين وحتى تصير الدقائق قرونا .

عاش الحوادث بوضوح مدهش منذ ان برزت الشاحنة عن يمينه ... خرجت من ذلك الشارع الضيق الصامت وسدت نصف الطريق الرئيسي وضغط هو بدون جدوى على دواسة المكبح وأدار المقود نحو اليسار ..

في ذلك النصف الثاني من الطريق تظهر سيارة ثانية تتجه نحوه بسرعة فائقة . أحس ان الخناق يضيق عليه : بعد لحظتين او ثلاث سيسد الطريق تماما وسيصل رغم محاولاته الى نقطة تقاطع مسيرات العربات الثلاث .

*

كانت الحمامة البيضاء تتنقل فوق سطح مبنى كلية الحقوق ، ذاهبة ، راجعة في مسيرة كأنها غير قابلة للنهاية أو الانفصال ، متجهة تارة نحو عين الشمس التي بزغت منذ لحظات وتارة نحو البحر الذي لا تظهر منه ، فوق العمارات والاشجار ، الا حاشية زرقاء .. وفجأة تطير الحمامة ويمر ظلها المتموج فوق جماعة من الطلبة ، كانوا ملتفين حول جريدة يفكون اسرار رموزها بالحاح ، ثم بجنب فتى وفتاة جالسين على مقعد من حجر ثم فوق الطريق الرئيسي ، بعد ان خففت من سرعتها كي تتوقف فوق شجرة . وارتسمت اذ ذاك لمدة لحظات ، مع السماء الزرقاء وبعض الاغصان والاوراق ، صورتها في زجاج السيارة فوق الصورة الداخلية : السائق او ما يظهر منه ،جزء من المقود ، جريدة نصف مطوية فتحت الريح اوراقا منها وأخذت تعبث بها من حين الى اخر .

لم يكن يظن انه يمكن للزمان أن يفقد تواصله واستمراره وان يتقطع ويتمزق ويصير شظايا ملونة مرسوما في كل واحدة منها قصة او جزء من قصة .. اوراق مبعثرة كأوراق الخريف ينظر اليها بنوع من الاطمئنان والهدوء .

الطلبة وقد زال الآن اهتمامهم بالجريدة كأنهم في جدال حاد تارة وفي صمت يائس تارة اخرى ..

« انهم يخفون علينا الحقيقة » : كلمات تأتي من بعيد بعد ان حدثت لها تغيرات عديدة : تمديد ، تحريف ، بتر .. ثم كلمات أخرى يغطيها تصفيق أجنحة الحمام أو يمزقها دوي سيارة تمر ، بحيث أنه لا يفهم منها الا القليل .

« البعض يحكي حكاية والبعض الآخر يحكي حكاية اخرى » .

تتوقف الحافلة الضخمة مع ازيز مطاط العجلات فوق الاسفلت، تنزل امرأة ويصعد ستة رجال ، ثم تنطلق من جديد مع دوي المحرك الذي يغطي صوتا كأنه صياح : « اين الحقيقة ؟ » انزلاق الحافلة يزيح من جديد الستار على مشهد فناء الكلية ، الطلبة لم ينته جدالهم ولكن الاصوات كأنها خفت والابعاد بين الاشخاص كأنها ازدادت والجريدة التي كانت مركز اهتمامهم هي الان فوق الارض ممزقة تلعب الارض بأجزائها .

هذا الصباح من شهر اكتوبر يبسم له بصفة غير عادية . الجو معتدل ، السماء صافية ، بعض السحب المنحلة ملونة من جهة الافق بألوان الفجر .. يقول بائع الجرائد بأن الجرائد بيعت كلها فور وصولها ، فيلح هو ، فيخرج البائع نسخة قائلا : « هذه نسختي» ثم يضيف : « الجرائد صارت أهم من الخبز » .

كل صباح خميس تأتي الفتاة مع صديقها ، يجلسان على ذلك المقعد يأكلان قطعتين من الحلوى وتأتي الحمامة البيضاء عند رؤيتهما وتقترب منهما وتمد الفتاة كفها فتأتي الحمامة لتلقط ما فيه .

*

ضمن اختلاجة من الضوء وبين تسلسل لحظتين تظهر جاكلين ، لابسة قميصا احمر وبنطلونا من نوع الجين ، ثم تختفي داخل دكان الخباز ..

جاكلين ، الاستاذة المساعدة في الجامعة ، عرفها منذ عشرة أيام، رآها لاول مرة وهي تخرج من مكتب رئيس القسم فسألها : « أنت استاذة هنا ؟ » قالت : « لماذا ؟ »

يحاول الآن أحد الطلبة أن يقنع الاخرين : « انها مجرد عملية انتحارية سيقضى عليها عن قريب » .

ـ لانني ظننتك طالبة .

علت وجنتيها حمرة زادت وجهها جمالا .

« مجرد عملية انتحارية » .

كانت جاكلين تتنقل من مكان الى آخر كشعاع من الشمس ، كانت خفيفة الحركة ، دائمة الابتسام .

« يقال انهم مهددون بالابادة » .

تخرج جاكلين من عند الخباز وتتجه نحوه باسمة كعادتها .

ـ محمود ! انت هنا ؟

ـ أين تريدين أن أكون ؟

ـ ولكن ماذا تفعل في هذا الصباح الباكر ؟

ـ وانت ؟

ـ أنا انهض دائما مبكرة .أما انت فانك من النوع الذي يحب البقاء في الفراش حتى منتصف النهار .

ـ نهضت لاستمع لنشرة الاخبار ثم لاشتري الجريدة قبل أن تباع كل النسخ .

ـ لماذا تقلق نفسك هكذا ؟

ـ لا استطيع أن انحكم في نفسي .

ـ ميدان القتال بعيد .

داخل دكان الخباز حوار تأنيهم منه اصداء : « ان الاذاعات الغربية تقول ان الوضع تغير » وصوت كأنه يردد شعارا : « انها عملية انتحارية فقط » . وللبرهان على ذلك ...

تقول جاكلين من جديد : « آلاف الكيلو مترات تفصلك عن ميدان القتال »

ـ ولكي كأن ميدان القتال هنا . وراء هضبة من تلك الهضاب. يمر بجنبهما قط أسود ،

ـ كأن ميدان القتال هنا داخل صدري .

... القط الاسود يدخل عند بائع الجرائد ثم يخرج بسرعة

ـ كأن كل هذه الحروب فصلتنا عن ماضينا .

ظل يقطع بساط الضوء ببطء وصدى خطوات .

ـ في كل مرة تتحطم الاسطورة .

حكايات القصاصين تموت في افواههم .

يأتي صوت غاضب من الدكان : « شربناها سما قاتلا » وصوت آخر : « كانوا يمجدون السيف عندما كان غيرهم من الامم .. » .

ـ لا تقلق نفسك . اني متأكدة أن هذه المرة ..

وتميل قليلا رأسها محدقة فيه ، باحثة عن طرفه : « لو أتيت لنتناول الفطور معا » ؟

فيتبعها صامتا راضيا .

عند ركوبهما المصعد تقول : « اخبرك ان شقتي تسودها فوضى رهيبة » .

ـ اني أحب الفوضى .

*

صار كل شيء بسيطا اليوم . بعد فنجان الشاي وبعد السيجارة الاولى ، تضع رأسها فوق كتفه وعند اقتراب شفتيه تتفتح شفتاها مثل بتلتي زهرة دون امتناع . صار اليوم كل شيء بسيطا ومباشرا بالنسبة لهذه الامور : لم ترتعش أدنى ارتعاشة ولم تظهر ادنى تردد عندما فتح ازرار القميص .

الحمامة البيضاء كأنها تنفعل من تلك السحابة الخفيفة التي بدأت الريح تبددها اشكالا تشبه اشكال حيوانات مألوفة .

تئن قليلا .

كأن كل ضياء الشمس اختزن بين جناحي الحمامة التي تمر ذلك الحين امام النافذة .

ـ اريد ان انام .

امتداد الجناحين يبعثر النور من جديد .

في المستطيل من الضوء الذي تمدده النافذة تظهر أوراق الاشجار ولونها الاخضر لم يتغير الا قليلا . تقول جاكلين : « غريب .. انتم لا تعرفون الخريف هنا . في هذا الوقت عندنا ، اوراق الاشجار كلها صفراء ونصفها واقع على الارض . خريفنا حزين ، وخريفكم لا يختلف كثيرا عن الربيع » .

يشعل سيجارة . المذياع الصغير حامت اصداؤه في زاوية من الغرفة كأنه يحمل في بطنه ملايين الاسرار .

ـ الطبيعة هنا لا تعرف الحزن .

ثم ، وكأنها فهمت رغبته في أن يمد يده نحو المذياع ليستمع الى الاخبار من جديد ، تضع رأسها فوق صدره وتقول : « نم ولا تفكر في شيء » .

ذلك المستطيل من الشمس الواقع على الارض يدنو منهما في انسحاب خفي ، يصعد فوق السرير ويغطي جسديهما بمعطف من الدفء ويضيف الى صمتهما صمتا أعمق لا تشوبه الا الاختلاجات المتموجة لحركتهما النفسية .

جرس يرن بعيدا .

*

لم تسمع منه وهو ناهض الا اصواتا خفية وعندما أحست بالباب يفتح قالت : « أنت ذاهب؟ »

ـ سأرجع بعد ساعة . نامي .

تلبس من جديد معطف الشمس وتغمض عينيها فيصير العالم صفحة قانية ترقص داخلها خيوط سود تحيا وتموت مع تسلسل الزمن . صوت محرك سيارة . تنهض فجأة متجهة نحو النافذة .

كان يشعر بنوع من الارتياح وهو يتجه نحو السيارة . جاكلين تطل عليه من الشباك وكأنها تعرفه منذ أمد بعيد . الاذاعات الغربية تزرع الهلع في جراحنا . لن يستمع اليوم الى الاخبار . لن يترك في فمه الا ذلك الطعم الغريب العذوبة ، لن يجعل في اعماق عينيه الا تلك الصور الهادئة .

الحمامة البيضاء تتنقل فوق سطح مبنى الكلية ذاهبة ، راجعة ، في مسيرة كأنها غير قابلة للنهاية او الانفصال ، متجهة تارة نحوالشمس التي تصعد الان ببطء نحو كبد السماء وتارة نحو البحر الذي لا تظهر منه فوق العمارات والاشجار الا حاشية زرقاء . وفجأة تطير الحمامة ويقطع ظلها المتموج فناء الكلية ، ثم الطريق الرئيسي ، وترتسم لمدة لحظات ، مع السماء الزرقاء وبعض الاغصان والاوراق ، صورتها في زجاج السيارة فوق الصورة الداخلية ، يدان فوق المقود وشفتان عليهما نصف ابتسامة .

تبرز الشاحنة عن يمينه وتسد نصف الطريق ، وفي النصف الثاني تظهر سيارة تتجه نحوه بسرعة فائقة .

داخل السيارة ، في ذلك الفضاء الذي كان هادئا والذي صار رهيبا ، مع الحركة الخارجية المتوقعة : التقاء العربات الثلاث وسط الطريق وتغيير اتجاهاتها مع دوران وانسحاب وانقلاب ، تنشأ حركة داخلية : المقود يتأخر نحو المقعد ، جزء من السطح ينزل الى الاسفل والزجاج يتفجر جاعلا الهواء يتسرب بعنف .

لم يذق من قبل طعم المطاط ولا طعم الحديد ولم يعرف شيئا عن طعم الموت ولا عن طعم التراب ولكن المطاط والحديد والزجاج تجمعوا ليأكلوا من لحمه ، انقضوا على جسده النحيل كالحيوانات المفترسة ، وشربت الارض من دمه ما استطاعت أن تشرب .

احس ان جسده ينقسم الى الاف الاجزاء .. يداه مفتوحتان تحملان ضمن الكفين بقايا من ذكريات جسد جاكلين . شفتاه تختلجان بصفة غير محسوسة حاملة كل التساؤلات ، بطنه مفتوح . قلبه ينبض تحت ضوء الشمس ، تحت هبات النسيم ، بصفة هادئة ، متواصلة. أذناه في بطن الارض تسمعان نبض المدينة حيث تستمر الحياة في تسلسلها المعتاد مع شيء من الكآبة الهادئة .

... وكأن عينا منه تخرج من محجرها وتقذف بعيدا وتبقى هناك منفصلة عن جسده ، على حافة الطريق فوق الكلأ الاخضر تبعد كل شيء : جذوع الاشجار ، عجلات السيارات التي تدور الآن ببطء ، ارجل الناس ، وجاكلين التي تخرج من باب العمارة وهي تجري حافية الرجلين .

يسع وجهها كل صفحة العالم ، يشير اليها أن تدنو منه .

يقول في أذنها : « لم اكن اتخيلك قادرة على الحزن »

انه لا يرى العالم الا بعين واحدة ، عينه الاخرى وسط جرح عميق.

ـ كنت سعيدة معي ؟

ـ جدا .

في ذلك الشريط الضيق ، بين النور والظلام ، بين الحياة والموت ، ترجع الحمامة البيضاء خافقة الجناحين ويمر ظلها فوق الحديد المحطم ، فوق الدم القاني الذي لطخ العشب الاخضر ، فوق رؤوس الناس الذين التفوا حوله .

يحس فجأة انه خريطة جغرافية مزقت في ناحية من نواحيها ، ويتكلم اذ ذاك عن الموت في صحراء سيناء وهو لا يعرف شيئا عن الموت في صحراء سيناء ، ويقول أحد « انه يهذي » ويقول اخر كأن الحادث لا يهمه في شيء : « لقد أعلن عن وقف القتال » . فيأتي صوت فيه كثير من العتاب : « ان الرجل يموت امامكم » ..

« وقف القتال من جديد » .

يشير الى جاكلين ان تدنو منه ويهمس في أذنها : « اريد معرفة الحقيقة » فتفهم منه انه يريد معرفة الحقيقة بالنسبة الى جروحه . تقول : « حالتك ليست بخطيرة » .

فيلح هو : « اريد معرفة الحقيقة» .

ـ حالتك ليست بخطيرة صدقني .
ـ ما هي آخر الانباء ؟ هل توقف القتال ؟
ـ لا ترهق نفسك . ستصل سيارة الاسعاف بعد قليل .
ـ ارجوك . اريد معرفة الحقيقة .

في ذلك الشريط الناصع البياض الذي يقطع صفحة الظلام والذي يتضاءل عرضه من لحظة الى اخرى ، تمر من جديد الحمامة ، خافقة الجناحين وتقول جاكلين شيئا لا يعرف مدى قربه من الحقيقة، تقول كلاما لا يفهم منه شيئا لانه صمت ضمن صمت العالم .احس فقط بحركة شفتيها عند نشأة الكلمات .

ثم تقترب الشفتان من شفتيه لتميتا كل التساؤلات .

تحت الشعر المهتدل يظهر الان وجهها ملطخا من دمه .

تحتضن رأسه بين ذراعيها وتسقع شفتاه فوق صدرها الذي كان يظهر جزء منه بين زرين من ازرار القميص الاحمر .

الجزائر

صدر حديثا

الفكر العربي

في معركة النهضة

تأليف الدكتور انور عبدالملك

« هذا الكتاب موجه في المقام الاول الى قطاع محدود من جمهور القراء في العالم العربي ، هو قطاع الجيل الجديد من شبابنا العربي في كل مكان ، شباب الريف والمدن ، شباب الفكر والعمل . شباب الانتاج والعلم والسلاح . ربما يجد فيه بعض رجال الفكر والعمل من جيلنا ـ الذي كان « على موعد مع القدر » ـ اسهاما في نهضتنا الحضارية . نقول « البعض » ، اذ ان منهج التنقيب عن مستقبل الفكر العربي في عصر النهضة الحضارية ، وهو المنهج النابع من تغيير الاطار المعرفي ـ وهو جوهر عملنا النظري القائم منذ ١٩٥٩ ، والمرتقب ، الا وهو تجديد الفلسفة الاجتماعية على ضوء تفاعل حضارات الشرق والغرب ـ نقول : ان هذا المنهج وذاك التجديد النظري يمتدان على وجه التحديد الى مرحلة الثورة الوطنية التقدمية من حركتنا الوطنية المتأقلمة في اغلب الاحيان في اجواء ثقافية ـ فكرية استشراقية ، او امية ، او سلفية .

وهو كتاب يتصدى للاجابة على سؤال مركزي في تحركنا العربي المعاصر ، الا وهو : كيف يمكن ان نقيم علاقة جذرية ، عضوية ، متصلة ، بين تحركنا الوطني التحرري المتجه الى الثورة الاجتماعية والهدف الاشتراكي من ناحية ، وبين اقامة فلسفة تواكب هذا التحرك الذي فرض نفسه على العالم اجمع ، تكون ، على وجه التحديد ، فلسفة النهضة الحضارية في مصر والعالم العربي » . ـ من المقدمة ـ

منشورات دار الآداب — الثمن ٨٥٠ قرشا لبنانيا